الفصل الخامس

الجاحظ ومفهوم اللفظ والمعنى

ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٠ ـ ٢٥٥ هـ) اشهر ادباء القرن الثالث واغزرهم نتاجا فيما الف وكتب . واعظم كتاب العربية فيما تناوله من موضوعات فكرية وادبية واجتماعية . كان اديبا موسوعيا نهل من الثقافة العربية القديمة ماخلق فيه طبعا عربيا اصيلا وذوقا فنيا رفيعا واحاط بثقافات عصره احاطة شاملة واعية حتى قال عنه احد معاصريه لم ار قط ولاسمعت من احب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ . فأنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ماكان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر)(١)

كان مثقفا تستهويه القراءة والمطالعة وتحفزه الرغبة في المعرفة الى تتبعها في مظانها دون أنفة او غرور فلا يجد ضيرا ان يسأل العالم والمتكلم والشاعر والاديب مثلما يسأل القرادين والسماكين والبحريين وغيرهم من عامة الناس اذا وجد ان اقوالهم تفيد في مسألة من المسائل التي يتحدث عنها .

وكأن مفكرا في جميع مؤلفاته ووسائله ملتزما بهدف فكري حيث فكر المعتزلة الذين تصدوا للدفاع عن العقيدة الخالصة وتهذيبها من شوائب الباطنية والمجسمة .

---

(١) . معجم الادباء ٦ / ٥٦

وكان العقل هو الوسيلة في الاقناع والمجادلة فمنهج الجاحظ هو منهج المعتزلة لكنه بز علماءها بأسلوبه الادبي الجميل وعباراته الفصيحة الرصينة . وطريقة عرضه للقضايا الادبية والافكار العامة مما جعل مؤلفاته قريبة من العامة والخاصة يقرؤها الجاهل والعالم والشاعر ومن لم ينل الا حظا هينا من الثقافة والعلم . ونستطيع ان نجد صفة مؤلفاته من خلال مقدمة كتابه (الحيوان) فقد قال فيها : ـ

(وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم وتتشابه فيه العرب والعجم لانه وان كان عربيا اعرابها واسلاميا جماعيا . فقد اخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة واشرك بين علم الكتاب واللغة . وبين وجدان الحاسة واحاسيس الغريزة ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ . ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك . ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجد ذو العزم)(٢)

وكانت رغبة الجاحظ في اقناع القارىء وايصال المعرفة اليه قوية بحث لها عن اقوم السبل واقربها الى نفسيته فوجد لنفسه منهجا يتمثل بظاهرتين واضحتين في جميع مؤلفاته اولهما ـ الاستطراد .
ثانيهما ـ مزج الجد بالهزل .

وقد تجعلهما ظاهرة واحدة فمنهج الجاحظ في عرض افكاره منهج اختاره هو عن قناعة وتعليل وهو اللجوء الى الاستطراد والتنقل من موضوع الى آخر مما يجعل الظاهرة الثانية نتيجة لمنهج الاستطراد حيث ينتقل الجاحظ من حديث جدي الى اخر في الهزل ومن مناقشة فلسفية جادة الى نادرة تستروح لها النفس ، وتهش بها الروح وقد عمد بعضهم هذا النهج احد عيوب الجاحظ في تأليفه فالدكتور بدوي طبانة يرفض جملة من التعليلات المذكورة في سبب استطراد الجاحظ . فاذا كانت حدود البيان بعيدة وآفاقه واسعة مما اقتضى الاستطراد في كتاب البيان والتبيين فقد لايكون الامر كذلك في موضوعات اخرى محدودة للغاية معروفة المنهج ككتاب الحيوان مثلا(٣)

ورأى غيره ان سبب استطراد الجاحظ يعود الى كبر سنه في تأليف الحيوان وانه الفه في اوقات متفاوتة ، وقد يكون من المحتمل ان الرأي غاب عنه عند العمل في الكتاب الاول فاستدركه في الثاني ، كما ان من العسير ان ترجع ذلك الاسلوب

---

(٢) الحيوان ١ / ١١
(٣) دراسات / طبانه ١٦٣

الاستطرادي الى الثقافة الواسعة والى نفسية المؤلف ، وان واحدا من هذه المعاذير لايمكن لن تنهض مسوغا يطمئن اليه العقل يهدي اليه التفكير . ورأى أن هناك تبريرا اعمق واقوى استقامة عن احدى مقدمات مؤلفاته وهي مقدمة المحاسن والاضداد التي تحدث فيها الجاحظ عن حسد الحاسدين له فيكون التكرار الموجود في كتاب الجاحظ ـ وهو احد مظاهر الاستطراد ـ بسبب خوفه من الحاسدين من ان يغيروا على مؤلفاته فتعمد التكرار مستطردا في اكثر من كتاب ليثبت حقه فيها .

ولكن اعادة النظر في منهج الجاحظ ترد هذه التهمة عن مؤلفاته فالخلل اذا ظهر في كتاب كاتب وغفل هو عنه ، ونبهه الاخرون عليه يعد عيبا ، اما اذا كان بتصميم من المؤلف واختيار منهجي مسبق فهو ليس عيبا في اي حال من الاحوال . وهكذا وجدنا الجاحظ يصف منهجه الاستطرادي هذا ومزجه الجد بالهزل معللا سبب اختباره له في كتاب الحيوان وربما في كثير من مؤلفاته .

(وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه واراك قد عبته قبل ان تقف على حدوده وتفكر في فصوله ، وتعتبر اخره بأوله وقد غلطك فيه بعض مارأيت في اثنائه من مزج لم تعرف معناه ومن بطالة لم تطلب على غورها ، ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لاي علة تكلفت ، واي شيء أريد بها ولاي جد احتمل ذلك الهزل ، ولاي رياضة تجشمت تلك البطالة ولم تدر ان المزاح جد اذا احتلب ليكون علة للجد وان البطالة وقار ورزانة اذا تكلفت لتلك العاقبة ولما قال الخليل بن احمد لايصل احد من علم النحو الى مايحتاج اليه حتى يتعلم مالا يحتاج اليه وذلك مثل كتابنا هذا لانه ان حملت جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق ، وصعوبة الجد ، وثقل الموؤنة وحلية الوقار لم يصبر عليه طوله الا من تجرد للعلم ، وفهم معناه(٤)

ان منهج الجاحظ الاستطرادي هذا له علاقة وثيقة بارائه النقدية فمؤلفاته الموسوعية جعلت اراءه مبثوثة في كتبه ضائعة بين ثنايا موضوعات متنوعة يذكرها عرضا ويشير اليها استطرادا ولم يفرد للادب والشعر ونقدهما كتابا خاصا مثلما فعل معاصره ابن سلام ومن جاء بعده كأبن قتيبة . وقد اشار ابو هلال العسكري (وهو

---

(٤) الحيوان ١/ ٣٨ واشار الى هذه الفكرة نفسها في الجزء السابع من الحيوان ص ١٦٢ .
(٥) الصناعتين ٤ ـ ٥

ممن افاد من آراء الجاحظ في النقد والبلاغة) الى كون آرائه مبثوثة غير مجموعة في كتاب واحد فهي منتشرة في تضاعيف الكتاب ـ يعني البيان والتبيين ـ منتشرة في اثنائه ضالة بين الامثلة لاتوجد الا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير(٥)

ولعل تأثر آراء الجاحظ النقدية هي التي صرفت بعض الباحثين عن الانتباه اليها او اعطائها ماتستحقه من العناية والتحليل والاستقصاء . فالمرحوم طه احمد ابراهيم وهو من اوائل من كتب في تاريخ النقد الادبي عند العرب تحدث بالتفصيل عن آراء ابن سلام وابن قتيبة محللا اراءهما ومنهجيهما في حديثه عن النقد عند متقدمي النحويين واللغويين ولم يخصص للجاحظ الا فقرة موجزة ووعد ان يتحدث عنها في حينها ولكنه لم يحقق هذا الوعد حيث قال معقباً على ما استنتجه من آراء نقدية في القرن الثالث :

(هذه الذهنيات هي اظهر الطرق في فهم الشعر وتذوقه خلال القرن الثالث هي التي تتجمع حولها الاذواق ويصدر عنها كل ماقيل فيه فليس من ناقد الا ويرجع ذوقه ومذهبه الى احداها . وقد تسألني وابو عثمان الجاحظ ما شأنه ؟ وكيف اغفلنا ذكره في النقاد ؟ والحق ان في كتاب البيان والتبيين اموراً حسنة تتصل بنقد الشعر كالذي يذكره الجاحظ في المطبوعين على الشعر من المولدين ، واثر الصنعة في شعر زهير والحطيئة والفاظ المتكلمين في شعر ابي نؤاس واثر المديح في جعل الشعر متكلفا وهذه الاراء ادنى الى النقد الموضوعي منها الى النقد الذاتي فضلا عن ان اكثرها ليس للجاحظ ، لو شئنا ان نعرف ماذوق الجاحظ في الشعر واي ضروبه وفنونه يؤثر ، ومن الذين يفضلهم من الشعراء لما اهتدينا . على ان الجاحظ لم يتخيل عن النقد جملة فله في نقد النثر والخطابة وتدوين علم البلاغة عند العرب آراء سديدة واثر عظيم نذكره في حينه .(٦)

ولم يف د . طه احمد ابراهيم بوعده لان اجله وافاه قبل ان يتم محاضراته ومع هذا فالفقرة السابقة ـ على قصرها ـ تتحدث عن آراء الجاحظ في كتاب واحد هو البيان والتبيين اما كتبه الاخرى فلم يشر اليها ، لان آراءه فعلا متفرقة مبثوثة ، اما قوله بأنك لاتستطيع ان تهتدي الى رأى الجاحظ في الشعر وفنونه وفيمن يفضله من الشعراء فكلام عام ينفيه ماستجده من فقرات هذا الفصل .

---

(٦) تاريخ النقد ١٤٠

اما د . محمد مندور فلم يذكر الجاحظ في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) وعذره واضح في انه وضع منهجا لايمكن ان يملك الجاحظ فيه اذ لم يكن له كتاب في النقد منفرد وقصد مندور من النقد المنهجي هو : (ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه اسس نظرية او تطبيقية عامة ، ويتناول بالدرس مدارس ادبية او شعراء او خصومات يفصل القول فيها ويبسط عناصرها ويبصر بمواضيع الجمال والقبح فيها(٧) امامؤرخو النقد والادب بعد هذين الباحثين فقد تناولوا دراسة ادب الجاحظ مستقصين افكاره وتطبيقاته من خلال آرائه المتناثرة وتعليقاته العابرة مما يمكن ان يجمع شتاته ، ويضم بعضه الى بعض ليكون صورة واضحة للنقد في فكر الجاحظ وأدبه .(٨)

في تعريف الادب :

من المعلوم ان الجاحظ وضع كتابه البيان والتبيين لغاية تعليمية فقد أورد فيه نصوصا واخبارا ذات مستوى فني عال ، واجمل خلالها آراء البلاغيين والمشهورين من الخطباء والشعراء ممن عرفوا بالبيان والفصاحة والبلاغة . كل ذلك ليوضح للقارىء حدود البيان فيتبينها ، ويحتذي حذوها لكننا نفهم في الوقت نفسه ان معرفة حدود البيان لاتكفي لخلق الاديب البليغ والخطيب المتمكن انما يجب ان تتوافر الموهبة الادبية التي تمكن صاحبها من صقلها او تهذيبها والا فلن تكون هناك اي فائدة من التعلم اذا افتقد صاحبها الموهبة التي تجسد الابداع والذوق الذي يعين على تذوق النصوص وفهمها والاديب اذا اعتمد على موهبته وحدها دون الثقافة والتعلم اضاعها واضاع نفسه لان الاهمال يفسد قوة القريحة كما ان رعاية الموهبة بالثقافة الرصينة يؤدي الى ابرازها وصقلها وتجريدها = وفي هذا يقول الجاحظ : ـ

(وانا اوصيك الاتدع التماس البيان والتبيين ان ظننت ان لك فيهما طبيعة وانهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في بعض المشاكلة ، ولاتهمل طبيعتك فيستولي الاهمال على قوة القريحة ، ويستبد به سوء العادة كنت ذا بيان احسست نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة او بقوة المنة يوم الحقل ، فلا تقصر في التماس اعلاها سورة ، وارفعها في البيان منزلة)(٩)

---

(٧) النقد المنهجي ـ مندور ص ٥

(٨) راجع في هذا خاصة ، النقد المنهجي عند الجاحظ ، داود سلوم ومقالات في تاريخ النقد ، وكتب تاريخ النقد الاخرى المشار اليها في ثنايا البحث .

(٩) البيان والتبيين ١ / ٢٠٠ ، وانظر نصوص النظرية النقدية / ٣٨

وسنفصل رأى الجاحظ في شروط النص الجيد وان منها الطبع والموهبة لكن الذي يهمنا هنا انه التفت التفاتات رائعة الى تفاوت الادباء في الموهبة الفنية . فمن كان له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع قد لايكون له طبع في قرض بيت شعر ومثل هذا كثير(١٠)

الناقد :

نحن نعرف ان النقد يعني بتناول الادب وتحليله وفهمه وابراز عناصر الجمال والاساءة فيه وهذه المهمة لايمكن ان يقوم بها اي قارىء او سامع للشعر اذ لابد من توافر شروط تؤهل صاحبها للنظر في الاشعار وابداء الرأي فيها او هي كما رآها ابن سلام صناعة يعرفها اهل العلم بها كسائر اصناف العلوم والصناعات .. واول مايجب معرفته معرفة دقيقة هو الاطلاع على اللغة العربية واسرارها واختلاف دلالات الالفاظ باختلاف المعاني وهذه المعرفة هي التي تعينه على فهم النص الادبي وتذوقه فأن حرم منها المرء تعذر ان يكمل جوانب ثقافته النقدية المطلوبة وساءت احكامه وفهمه لكلام العرب فللعرب امثال واشتقاقات وابنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وارادتهم ولتلك الالفاظ مواضع اخر . ولها حينئذ دلالات اخر فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل فاذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس من اهل هذا الشآن هلك واهلك(١١) . فهذا الكلام ادخل في باب النقد وثقافة الناقد منه في باب البلاغة والبيان .

ونستطيع ان نجد رأي الجاحظ مفصلا اكثر في نص نقله ابن رشيق عندما يقول متحدثا عن الادباء والكتاب (طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لايتقن الا اعرابه . فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لاينقل الا ما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالايام والانساب فلم اظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات)(١٢)

---

(١٠) نفسه ١ / ٢٠٨

(١١) الحيوان ١ / ١٥٣ وانظر تاريخ النقد ـ عتيق ٣٤٢

(١٢) راجع دراسات ١٧٠

ولا يمكن ان نفهم من هذا الرأي ان الجاحظ قد غالى في تقدير الكتاب (لانه مولع بالصياغة والافتنان وديدن الكتاب هو هذا الولوع . لان المعاني التي كانوا مطالبين بالتعبير عنها واحدة . او متقاربة ولكنهم كانوا يتفاضلون على قدر تفاوتهم في التعبير عن تلك الاغراض التي يريدون او يطلب اليهم التعبير عنها فيختلفون)(١٣) .

فتقدير الجاحظ لهم ليس لتفننهم في الصياغة والتعبير وانما حديثه عن احاطتهم بالعلوم المتعلقة بالشعر لغة وغريبه واعرابه وتاريخ الشعراء وقبائلهم فهذه كلها متوفرة عند الكتاب الشعراء وهم الذين وجد عندهم علم الشعر وهم المؤهلون اذن للنقد دون . غيرهم من العلماء المتخصصين في معرفة من المعارف اللسانية ممن بحث الجاحظ عن علم الشعر فلم يجده عندهم لانهم تخصصوا في غيره . فالاصمعي في علم اللغة . وابو عبيدة في اخبار الشعراء وقبائلهم . والاخفش في اللغة واعرابها وهذه العلوم لابد منها في دراسة الشعراء ولكنها لاتؤهل صاحبها للنقد اما ادباء الكتاب فقد جمعوا في ثقافتهم كل علوم الشعر ومعانيه واشترط في من يتسلم وظيفة الكتابة في ديوان الرسائل هذه الثقافة الادبية العالية التي تجمع الى جانب الذوق الادبي والاحساس المرهف معرفة عميقة بأخبار الشعراء وقبائلهم وانسابهم وبصرا باللغة وغريبها واعرابها .

ان معرفة اللغة ومفرداتها ومعانيها لاتكفي وحدها ليكون صاحبها ناقدا كما ان تتبع الاشارات التاريخية ومعرفة مدلولها على بيئته الشاعر او قبيلته ونسبه مما يدخل ضمن (الاخبار) لايكفي ايضا لجعل صاحبه ناقدا وانما الناقد هو ذلك الاديب الذي يلم بجوهر الشعر ويتذوقه ويتحسس مواطن الجمال فيه كالطبع المتمكن او السبك الجيد والديباجة الكريمة وحسن المعاني وكل ما يتعلق بالنص الشعري . وهذا يتوفر عند الادباء او حذاق الشعراء ولم يأت رأي الجاحظ ضمن اراء نظرية عابرة انما جاء نتيجة خبرة ادبية طويلة واتته من خلال مصاحبته للعلماء والادباء ممن تبين له عدم احاطة بعضهم بجوهر الشعر وما يتعلق به من مشاعر . فرواة الشعر من المسجديين والمربديين في البصرة وجد الجاحظ ان نظرتهم الى الاشعار قاصرة متذبذبة . فقد ادركهم وهم معجبون بكل مايرد اليهم من اشعار المجانين ولصوص الاعراب والاشعار المنصفة والارجاز القصيرة . ثم استبردوا ذلك كله حين

---

(١٣) راجع دراسات ١٧٠

وقفوا على قصار الحديث والقصائد والفقر ثم غيروا اراءهم فتركوا الارجاز والقصائد القصار ليعجبوا بشعر العباس بن الاحنف حتى اذا اطلعهم خلف الاحمر على نسيب الاعراب صار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الاعراب ، ثم رايتهم منذ سنيات وما يروي عندهم نسيب الاعراب الاحدث السن ، قد ابتدأ في طلب الشعر او فتياني متغزل(١٤) .

ان هذا التتبع لرواة الشعر في البصرة يدلنا على بصر الجاحظ بعلم الشعر فهو يعيب عليهم اعجابهم السريع وتنقلهم بين انواع متعددة من الاشعار يغيرون آراءهم فيها حسب اهوائهم . وقد راقب الجاحظ اراء بعض العلماء واستنتج بعد ذلك رأيه فيمن يحق له ان يكون ناقدا عن علم وبصيرة وكان نقده لاراء هؤلاء العلماء نقدا موضوعيا لانه كما نص على ذلك قد جالسهم وسمع اراءهم التي حكمتها عدة عوامل الا العامل الفني ، فقد عاب على ابي عمرو الشيباني وابي عبيدة بعض آرائهما . فاما ابو عمرو الشيباني فقد ذكر بأنه شهد مجلسه ورآه يكتب اشعارا من افواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر لكن رأي الجاحظ في تلك الاشعار غير ذلك فهو يراها رديئة ولايمكن ان تدرج في باب الاشعار حتى انه يسخر من عدم توفر الموهبة الشعرية لاصحابها بقوله (وربما خيل الي ان ابناء اولئك الشعراء لايستطيعون أن يقولوا شعرا جيدا لمكان اعراقهم من اولئك الاباء)(١٥) .

واما ابو عبيدة فيكفي ان الجاحظ قال عنه ، ولولا ان اكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك في هذا الكتاب ما سمعت من ابي عبيدة ثم للعلماء ومن هم ابعد من وهمك من ابي عبيدة) . كما اشار الى مجالسته لبعض علماء بغداد ايضا باحثا عن علم الشعر لديهم بعد ان عرف عنهم احاطتهم بلغة الشعر او مفرداته او اخبار الشعراء وقبائلهم فيقول :

(وقد جلست الى ابي عبيدة والاصمعي ويحيى بن نجيم وابي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين فما رأيت احداً منهم يجمع ذلك كله ولم ار غاية النحويين الا كل شعر فيه اعراب ، ولم ار غاية رواة الاشعار الا كل شعر

---

(١٤) البيان ٤ / ٢٤

(١٥) البيان والتبيين ١ / ٢٤

فيه غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم ار غاية رواة الاشعار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل(١٦) .

اما مايريده الجاحظ للنقاد فهو ماوجده عند الاديب المتضلع بهذه المعارف كافة مع التذوق والبصر بروح الالفاظ وحسن المعاني وتميز لمطبوع الشعر الذي يعمر القلوب بجماله ورونقه فيقول (ورأيت عامتهم وقد طالت مشاهدتي لهم لايقفون الا على الالفاظ المتخيرة او المعاني المنتخبة وعلى الالفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور عمرتها واصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الاقلام على مدافن الالفاظ واشارت الى حسان المعاني ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب اعم وعلى السنة حذاق الشعر اظهر)(١٧) .

ولذلك رأى الجاحظ ايضا ان عامة الناس لايمكن ان يركن الى آرائهم في الاشعار لانهم يفتقدون اساسا شرطا مهما هو الذوق الرفيع الذي يميز بين البديع المخترع والرديء المقلد . او بين اللغة الشعرية القبيحة والاخرى الفصيحة قائلا : ـ

ان العامة لا تصلح حكما في انتخاب الالفاظ لفساد ذوقها فقد تأخذ اللفظ القبيح وتترك الجميل كما يشتهر عندها من لايستحق الشهرة . كما انهم يفتقدون الثقافة الواسعة التي تعينهم على الحكم الموضوعي ويظهر ذلك في شيوع الفاظ عند العامة مع عدم صحتها وتركهم الاخرى الفصيحة وفي اعجابهم باشعار رديئة دون الاشعار الجيدة الجميلة والعامة ربما استخفت اقل اللغتين واضعفهما . وتستعمل ماهو اقل في اصل اللغة استعمالا وتدع ماهو اظهر واكثر . ولذلك نجد البيت من الشعر قد سار . ولم يسر ماهو اجود منه وكذلك المثل السائر . وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو اولى بذلك منه الا ترى ان العامة ابن القرية عندها اشهر في الخطابة من سحبان وائل وعبيد الله بن الحر اذكر عندهم في الفروسية من زهير بن ذؤيب وكذلك مذهبهم في عنترة بن شداد وعتيبة ابن الحارث بن شهاب وهم يضربون المثل بعمرو بن معد يكرب ولا يعرفون بسطام بن زيد(١٨) .

---

(١٦) البيان ٤ / ٢٣ وانظر دراسات ص ١٧٢

(١٧) البيان ٤ / ٢٤

(١٨) البيان ١ / ٢٠ ـ ٢١

ونستطيع ان نجد دعوة الجاحظ الصريحة للنقاد ليكونوا اقرب الى الموضوعية وابعد عن الهوى النفسي والميل الشخصي في حديثه عن الخطابة قائلا :

واذا كان الخليفة بليغا والسيد خطيبا كان الناقد لقولهما في الاكثر احد رجلين رجل يعطي كلامهما من التعظيم على قدر مالهما في نفسه من الحب ورجل يتهم نفسه فيسرف في اتهام من يعظمه خشية ان يكون مخدوعا عنه)(١٩) . ولكن الناقد العادل هو القوي الذي لايتأثر بهوى نفسه ولا برأي غيره . للجاحظ آراء نقدية كثيرة مبثوثة في ثنايا كتبه)(٢٠) . وسنقف على مسألتين كان فيهما الجاحظ رائدا حيث نقلت آراؤه وتأثر بها النقاد والبلاغيون سواء كانوا موافقين له فيما اراد او مضيفين وناقلين وهما ما يتعلق برأيه في الالفاظ والمعاني ورأيه في القديم والمحدث من الاشعار فكلتاهما مسألتان شغلتا بال النقاد في مختلف العصور الادبية .

الالفاظ والمعاني :

يعد الجاحظ من اوائل من لفت الانتباه الى البحث عن سر الاجادة في النص الادبي . هل هو في افكار الاديب وما يدعو اليه ام في طريقة تعبيره ومدى اجادته في ابراز المعنى او الفكرة الكامنة في ضميره ونقلها الى فكر السامع او بتعبير آخر هل الفضل في الاجادة الفنية عائد الى المعاني ام الى الالفاظ ؟

لقد صار رأي الجاحظ في هذا الموضوع منطلقا وبداية لكل من يريد الخوض فيه حيث يقول :

(المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشآن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)(٢١) .

ولقد توهم كثير من الباحثين في فهم رأي الجاحظ هذا مكتفين بالجملة الاولى من كلامه (المعاني مطروحة) ليستنتجوا ان الجاحظ من انصار الالفاظ على

---

(١٩) البيان ١ / ٢٦

(٢٠) انظر رأيه في مكان الشعر عند العرب وتعليله اللطيف لايراد قصص ثور الوحش في الشعر الجاهلي في نصوص النظرية النقدية ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٢١) الحيوان ٣ / ١٣١

المعاني وانه شكل في هذا مدرسة نقدية كان من آثارها ابو هلال العسكري(٢٢) وانه صاحب نظرية في الشكل مع انه لم يكن من الشكليين في التطبيق(٢٣) .

وعلل د. بدوي طبانة سبب اندفاع الجاحظ في التمسك بالالفاظ دون المعاني بعد ان قرر التنكر لزعمه بقوله واصفاً رأي الجاحظ : (ان هذا من الشطط الذي لم يقده اليه الا تعلقه بمذهب الصنعة هذا التعلق الذي اعماه عن تقدير المعنى وليست منزلة المعنى دون منزلة اللفظ في تقدير القيمة الفنية للعمل الادبي)(٢٤)

وبالغ محمد زغلول سلام بأن استنتج رأياً غريباً نسبة الى الجاحظ وهو ان الاعجاز القرآني متعلق بالالفاظ دون معاني القرآن فاهما رأي الجاحظ في نظرية النظم فهما خاصاً يقول : ـ

(ثم يرى الجاحظ ان الاعجاز متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعاني اذ طلب الله تعالى اليهم ان يأتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفترى ولا معنى له (فما بال القرآن وقد جمع الى النظام الرائع المعاني الفائقة(٢٥) وعبارة الجاحظ الاخيرة تنقض رأي د. سلام لان الجاحظ وقف وقفات رائعة عند الايات الكريمة منبها الى سمو معانيها وكيف عبر عنها القرآن الكريم بأيجاز معجز واسلوب باهر .

وروى اخرون ان الجاحظ قد ثمن النص الادبي من خلال ايثاره اللفظ على المعنى(٢٦) ودافع باحث آخر عن نظرية الجاحظ في الالفاظ والمعاني ليقول بأنه (لم يعن الالفاظ مفردة وانما عنى الصياغة والاسلوب(٢٧) وانه اول من نادى بهذا المذهب مذهب الصناعة والافتتان بالصياغة وان النظرة الى الادب ينبغي ان تكون الى مقدار ماحوى من آثار الصنعة وان هذا المذهب الذي اعتنقه الجاحظ ودعا اليه . وكان تشيعه للفظ مظهراً من اهم مظاهره . هو في حقيقته بحث في الوسائل التي

---

(٢٢) ابو هلال العسكري / طبانة ص ١٢٦ ، اثر القرآن في النقد ٧٢ تاريخ النقد ابن سلام ٦٦ .
(٢٣) تاريخ النقد الادبي عند العرب / احسان ٩٨
(٢٤) دراسات / طبانة ١٧٨
(٢٥) اثر القرآن ص ٧٧
(٢٦) النظرية النقدية / ١٧٦
(٢٧) تاريخ النقد ـ درويش ١٥٦

يتفاضل بها الادباء . وليست تلك الوسائل إلا المهارة في استعمال الالفاظ وتكوين الاسلوب الذي يختص به الاديب(٢٨) .

وحاول باحث اخر ان يرد مايمكن ان يتبادر الى الذهن من ان الجاحظ ينكر المعاني وشأنها في بلاغة القول (لاننا نراه ينوه بالمعاني الغريبة العجيبة والشريفة الكريمة والبديعة المخترعة وليبين كيف يتنازعها الشعراء فيدعى كل انها من بنات افكاره ووحي خياله وكيف ان من هذه المعاني مايخرجه الشاعر اخراجاً لايبارى فينصرف الشعراء عنه عجزاً)(٢٩) .

ويرى د . العشماوي ان عبارة الجاحظ هذه (على شهرتها وكثرة تداولها بل وتأثيرها الشديد فيمن جاؤوا بعد الجاحظ من نقاد غموض واضح فهي لم تحدد التحديد الصحيح لمفهوم المعنى عند الجاحظ وفصلت تفصيلاً عاماً بين المعنى واللفظ)(٣٠) .

والواقع ان الخروج من نص الجاحظ السابق الى النصوص الاخرى التي ابدى فيها آراءه يدلنا على انه لم يكن من انصار الالفاظ على المعاني ولا من الذين عنوا بالصياغة والاسلوب فحسب كما انه لم يفصل بين الالفاظ والمعاني بتحديد مفهوم المعنى عنده بل انه عنى بالنص الادبي بكل مايحمله من معان عبر عنها بالفاظ واساليب واوزان . فالنص الادبي الجيد هو ما كانت افكاره ومعانيه جيدة مقبولة في النفس وكان اسلوبه جميلاً مؤثراً واذا انفرد باحدى هاتين الميزتين دون الاخرى اصابه الخلل وخرج عن اطار النجاح الفني ودليلنا على ان الجاحظ قد اراد بقوله (المعاني مطروحة في الطريق) الفات الانتباه الى ان النظر الى ما يحمله البيت الشعري من حكمة او موعظة والاكتفاء بها لتقويم البيت هو نظر قاصر لانه يريد للمعنى الجيد ان يخرج باطار ادبي جميل مؤثر . دليل على هذا ان الجاحظ لم يطلق قوله السابق مجرد رأي نظرى وانما ذكره بعد ان مارس ما يمكن ان نسميه بالنقد التطبيقي حيث نقل لنا رأي ابي عمرو الشيباني في بيتين من الشعر فيهما حكمة وموعظة خاليتين من اي جمال فني فبنى عليه الجاحظ رأيه مؤكداً نظرة فنية صائبة هي ان عناصر النص الادبي تبدو كامنة في معانيه واسلوب صياغته .

---

(٢٨) دراسات / طبانة ١٩٦

(٢٩) في النقد (عتيق) ٣٢٩

(٣٠) قضايا النقد ٢٧٠

وانا رأيت ابا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة ان كلف رجلا حتى احضره دواة وقرطاسا حتى كتبهما له وانا ازعم ان صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا ابداً والبيتان هما : ـ

لاتحسبن الموت موت البلى
فانما الموت سؤال الرجال
كلاهـــما موت ولـــكـــن ذا
افظع من ذاك لذل السؤال

وذكر رأيه بعد هذين البيتين مدرجا عناصر النص الادبي بما يمكن ان نحصره بما يلي : ـ

أ . أقامة الوزن ، اي في اختيار الاوزان المناسبة للمعاني المطروحة .
ب . تخير اللفظ وسهولة المخرج ، وهذا مبحث افاض فيه الجاحظ حيث ذكر من شروط الالفاظ الجيدة حسن اختيار القائل لها سواء مطابقتها للمعاني أو في تصويرها لبيئة الشاعر او حياته مع توخي سلامتها وسهولة مخرجها .
جـ . كثرة الماء وصحة الطبع ، ويريد بهما بعد الشعراء عن الجفاف والافتعال المصطنع وقد اطلق العرب تعبير كقرة الماء كناية عن الحيوية والجمال فمـاء الشـباب مثلاً حيويـة الوجـه وصباحته . وقـد قرنه الجاحظ هنـا بصحة الطبع ليجعله عنصراً من عناصر النص الادبي الجيد . فكما يتفنن الصانع في صناعته والرسام والنساج في اختيار مواد رسمه او نسجه كذلك الشاعر يختار لنفسه الاسلوب الذي يحمل عناصر النجاح المتمثلة بالمعاني والصياغة والروح الشاعرية المناسبة الدالة على طبع شعري موات . لقد قرن الجاحظ هذه العناصر الثلاثة معا في اكثر من موضوع في كتبه فقال مثلا : ـ

(فأن كان المعنى شريفا . واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصيغة اصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد مالا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة .ولا يذهل عن فهمها معه عقول

(٣١) الحيوان ٣ / ١٣١

الجهلة)(٣٢) ان تشبيه تأثير النص في نفس المستمع المتذوق للادب بتأثير المطر اذا اصاب تربة كريمة تشبيه يدلك على ادراك الجاحظ لاهمية الطبع والموهبة في عملية الابداع الفني من ناحية ويشير الى التفاتته الى نفسية المستمع الذي يجب ان يكون مؤهلا لفهم النص وتقديره فيلقى في نفسه قبولا واستحسانا والا فأنه يكون كالتربة الميتة لايجدي فيها هطول مطر او غيث .

واورد الجاحظ ايضا في البيان والتبيين صحيفة بشر بن المعتمر التي اجمل فيها جملة آرائه النقدية البلاغية وفيها ان اولى الات البلاغة الطبع فاذا لم يجر الكاتب منه عرق فلا سبيل الى ان يكتب(٣٣)

وهكذا نجد خلاصة رأى الجاحظ في النص الجيد بكونه يعبر عن معنى جميل شريف بالفاظ مؤتلفة غير متنافرة واسلوب سلس موات غير متكلف وبهذا يجمع النص شروط الاجادة المتمثلة بالمعاني والالفاظ والروح الادبية الفنية التي تنساب منه فيقول ايضا :

(والمعاني اذا كسبت الالفاظ الكريمة والبست الاوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها واربت على حقائق اقدارها بقدر مازينت وحسب مازخرفت فقد صارت الالفاظ في معاني المعارض وصارت المعاني في معنى الجواري . فالقصد في ذلك ان تجتنب السوقي والوحشي ولاتجعل همك في تهذيب الالفاظ وشغلك في التخلص الى غرائب المعاني وفي الاقتصاد بلاغ وفي التوسط مجانبة للوعورة(٣٤)

ليست هناك اذن مفاضلة بين الالفاظ والمعاني في النص الادبي في رأي الجاحظ فاذا ادخل الشاعر او الكاتب الحيف على احداهما عيب قوله لكن تقدير المعاني الجيدة مناط بالذوق والفهم ولايمكن ان يحدد بقاعدة وشروط مثلما يفصل في الالفاظ وسنجد هذا في حديثنا عن عمود الشعر ومفهوم شرف المعنى عند النقاد . اما الالفاظ فهي محسوسة تدرك بالسمع والقرأءة ويمكن للناقد ان يفصل في شروطها ومايتوفر لها من معالم الاجادة والفصاحة .

---

(٣٢) البيان ١ / ٨٢

(٣٣) نفس المصدر السابق ١ / ١٣٥ ـ ١٣٦

(٣٤) نفسه ١ / ٢٥٤ ـ وانظر اثر الجاحظ في البلاغيين والنقاد في سر الفصاحة ٥ المثل السائر ١ / ٣٥٢ . دراسات بلاغية احمد مطلوب ٤٢٣ .